- رحلة ابن جبير عن قرب:
- بقلم:عادل على العرفي. بنغازي. ٢٠٠٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

تُعَدُّ رِحْلَةُ ابْنِ جُبَيْرٍ الْكِنَانِيِّ وَاحِدَةً مِنْ أَبْرَزِ الْمَعَالِمِ الْأَدَبِيَّةِ وَالتَّارِيخِيَّةِ فِي تُرَاثِ الرِّحْلَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ، حَيْثُ مَثَّلَتْ نَقْطَةَ تَحَوُّلٍ جَوْهَرِيَّةٍ فِي كِتَابَةِ هَذَا النَّوْعِ مِنَ الْأَدَبِ الْجُغْرَافِيِّ. تَمَيَّزَ هَذَا النَّصُّ الرِّحْلِيُّ بِدِقَّةِ الْمُلَاحَظَةِ وَعُمْقِ التَّحْلِيلِ وَجَمَالِ الْأُسْلُوبِ، مِمَّا جَعَلَهُ مَرْجِعًا خَصِيبًا لِلْبَاحِثِينَ وَالْمُؤَرِّخِينَ عَبْرَ الْعُصُورِ الْمُتَعَاقِبَةِ. يَعْكِسُ النَّصُّ رُؤْيَةَ مُثَقَّفٍ أَنْدَلُسِيٍّ عَايَنَ الْعَالَمَ الْإِسْلَامِيَّ فِي فَتْرَةٍ حَرِجَةٍ مِنْ تَارِيخِهِ، مِمَّا أَضْفَى عَلَى كَلِمَاتِهِ قِيمَةً تَوْثِيقِيَّةً لَا تُقَدَّرُ بِثَمَنٍ.

وُلِدَ أَبُو الْحُسَيْنِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ جُبَيْرٍ الْكِنَانِيُّ فِي مَدِينَةِ بَلَنْسِيَةَ بِالْأَنْدَلُسِ، وَنَشَأَ فِي بِيئَةٍ عِلْمِيَّةٍ حَافِلَةٍ بِالْمَعْرِفَةِ وَالْأَدَبِ. تَلَقَّى عُلُومَهُ الدِّينِيَّةَ وَاللُّغَوِيَّةَ عَلَى يَدِ كِبَارِ عُلَمَاءِ عَصْرِهِ، مِمَّا صَقَلَ مَوَاهِبَهُ وَجَعَلَهُ كَاتِبًا بَارِعًا وَشَاعِرًا مُجِيدًا. عَمِلَ ابْنُ جُبَيْرٍ كَاتِبًا لِوُلَاةِ دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ فِي غَرْنَاطَةَ، وَكَانَ يَحْظَى بِمَكَانَةٍ رَفِيعَةٍ لِمَا عُرِفَ عَنْهُ مِنَ النَّزَاهَةِ وَالْأَمَانَةِ. اتَّسَمَتْ شَخْصِيَّتُهُ بِالتَّدَيُّنِ الْعَمِيقِ وَالْوَرَعِ، وَالرَّغْبَةِ الصَّادِقَةِ فِي مَعْرِفَةِ أَحْوَالِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَشْرِقِ.

كَانَ السَّبَبُ الْمُبَاشِرُ لِرِحْلَتِهِ ذَاتِيًّا وَدِينِيًّا، حَيْثُ عَزَمَ عَلَى أَدَاءِ فَرِيضَةِ الْحَجِّ تَكْفِيرًا عَنْ ذَنْبٍ شَعَرَ بِهِ بَعْدَ إِجْبَارِهِ عَلَى شُرْبِ الْخَمْرِ. انْطَلَقَتْ هَذِهِ الرِّحْلَةُ الْأُولَى فِي شَهْرِ شَوَّالٍ مِنْ عَامِ ثَمَانِيَةٍ وَسَبْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ لِلْهِجْرَةِ، لِتَسْتَمِرَّ نَحْوَ سَنَتَيْنِ وَنِصْفِ السَّنَةِ. جَابَ خِلَالَهَا عِدَّةَ أَقْطَارٍ، مُدَوِّنًا يَوْمِيَّاتِهِ بِدِقَّةٍ مُتَنَاهِيَةٍ تَشْمَلُ التَّوَارِيخَ وَالْأَمَاكِنَ وَالْمُشَاهَدَاتِ. لَمْ تَكُنْ رِحْلَتُهُ مُجَرَّدَ سَفَرٍ عَابِرٍ، بَلْ كَانَتْ بَحْثًا مَعْرِفِيًّا وَاسْتِكْشَافًا لِلْوَاقِعِ الِاجْتِمَاعِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ لِلْأُمَّةِ.

بَدَأَتْ مَسِيرَتُهُ بِالِانْتِقَالِ مِنَ الْأَنْدَلُسِ إِلَى سَبْتَةَ، وَمِنْهَا رَكِبَ الْبَحْرَ مُتَّجِهًا إِلَى جَزِيرَةِ صِقِلِّيَّةَ ثُمَّ إِلَى بِلَادِ مِصْرَ. وَصَلَ إِلَى الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ فَأُعْجِبَ بِعَظَمَتِهَا وَمَنَارَتِهَا الشَّهِيرَةِ، وَدَوَّنَ مُلَاحَظَاتِهِ حَوْلَ الْمَكُوسِ وَالضَّرَائِبِ الَّتِي كَانَتْ تُفْرَضُ عَلَى الْحُجَّاجِ. انْتَقَلَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْقَاهِرَةِ، حَيْثُ انْبَهَرَ بِمُنْشَآتِ صَلَاحِ الدِّينِ الْأَيُّوبِيِّ مِثْلَ الْقَلْعَةِ وَالْمَارِسْتَانِ وَالْجُسُورِ. تَعْمُرُ كِتَابَاتُهُ هُنَا بِالْإِشَادَةِ بِالْعَدْلِ الْأَيُّوبِيِّ وَالِاهْتِمَامِ بِالرَّعِيَّةِ، مِمَّا يَعْكِسُ نَظْرَتَهُ التَّقْيِيمِيَّةَ لِلْحُكَّامِ.

تَابَعَ ابْنُ جُبَيْرٍ سَيْرَهُ صُعُودًا فِي نَهْرِ النِّيلِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى قُوصَ، ثُمَّ عَبَرَ صَحْرَاءَ عَيْذَابَ لِيَرْكَبَ الْبَحْرَ الْأَحْمَرَ نَحْوَ جُدَّةَ. كَانَتْ مَكَّةُ الْمُكَرَّمَةُ هِيَ الْهَدَفَ الْأَسْمَى، فَقَضَى فِيهَا شُهُورًا عَدِيدَةً شَهِدَ خِلَالَهَا مَنَاسِكَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ. وَصَفَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَالْكَعْبَةَ الْمُشَرَّفَةَ وَالْمَقَامَاتِ بِتَفْصِيلٍ هَنْدَسِيٍّ وَمِعْمَارِيٍّ بَدِيعٍ، كَمَا نَقَلَ أَجْوَاءَ الْحَيَاةِ الدِّينِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ لِأَهْلِ مَكَّةَ. تُمَثِّلُ هَذِهِ الْأَجْزَاءُ مِنْ كِتَابِهِ ذُرْوَةَ الْعَاطِفَةِ الدِّينِيَّةِ وَالْأَمَانَةِ الْوَصْفِيَّةِ.

بَعْدَ الِانْتِهَاءِ مِنْ مَنَاسِكِهِ، تَوَجَّهَ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ لِزِيَارَةِ الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ وَالرَّوْضَةِ الْمُقَدَّسَةِ. ثُمَّ قَطَعَ صَحْرَاءَ نَجْدٍ حَتَّى بَلَغَ مَدِينَةَ بَغْدَادَ، عَاصِمَةَ الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ. وَوَصَفَ بَغْدَادَ بِوَصْفٍ يَمْتَزِجُ فِيهِ الْإِعْجَابُ بِالتَّارِيخِ مَعَ الْأَسَفِ عَلَى مَا لَحِقَ بِهَا مِنَ الدَّمَارِ وَالْأُفُولِ. انْتَقَلَ بَعْدَهَا إِلَى الْمَوْصِلِ ثُمَّ إِلَى نَصِيبِينَ، مُتَأَمِّلًا طَبِيعَةَ الْبِلَادِ وَأَحْوَالَ سُكَّانِهَا.

دَخَلَ ابْنُ جُبَيْرٍ بِلَادَ الشَّامِ، فَزَارَ مَدِينَةَ حَلَبَ وَحَمَاةَ وَحِمْصَ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى دِمَشْقَ الَّتِي فَتَنَتْهُ بِجَمَالِهَا وَبَسَاتِينِهَا. أَفَاضَ فِي وَصْفِ الْجَامِعِ الْكَبِيرِ، وَاعْتَبَرَهُ مِنْ أَعْجَبِ مَبَانِي الدُّنْيَا وَأَجْمَلِهَا هَنْدَسَةً وَزَخْرَفَةً. كَمَا رَدَّدَ الثَّنَاءَ عَلَى أَهْلِ دِمَشْقَ لِحُسْنِ خُلُقِهِمْ وَكَرَمِهِمْ وَالْتِزَامِهِمْ بِعَمَلِ الْخَيْرِ وَإِعَانَةِ الْغُرَبَاءِ. تَعْكِسُ كِتَابَتُهُ عَنْ دِمَشْقَ نُضْجًا فِكْرِيًّا يَرْبِطُ بَيْنَ جَمَالِ الْمَكَانِ وَنَقَاءِ الْإِنْسَانِ.

مِنَ الْمَحَطَّاتِ الْأَكْثَرِ إِثَارَةً فِي رِحْلَتِهِ كَانَتْ زِيَارَتُهُ لِلْمُدُنِ الشَّامِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَحْتَ السَّيْطَرَةِ الصَّلِيبِيَّةِ مِثْلَ عَدِيدٍ مِنْ مَوَانِئِ السَّاحِلِ. زَارَ عَدَنَ وَعَكَّا وَصُورَ، وَلَاحَظَ بِدِقَّةٍ التَّعَايُشَ الِاقْتِصَادِيَّ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمَسِيحِيِّينَ و أَدْهَشَهُ أَنَّ الْقَوَافِلَ التِّجَارِيَّةَ كَانَتْ تَمُرُّ بَيْنَ الْجَانِبَيْنِ دُونَ انْقِطَاعٍ، وقد

قَدَّمَتْ مُلَاحَظَاتُه رُؤْيَةً سُوسْيُولُوجِيَّةً نَادِرَةً لِطَبِيعَةِ الْعَلَاقَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي زَمَنِ الْحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ.

رَكِبَ ابْنُ جُبَيْرٍ الْبَحْرَ مِنْ عَكَّا لِلْعَوْدَةِ إِلَى وَطَنِهِ، لَكِنَّ السَّفِينَةَ تَعَرَّضَتْ لِلغَرَقِ قُرْبَ سَوَاحِلِ صِقِلِّيَّةَ. ونَجَا بِأَعْجُوبَةٍ وَأَمْضَى فِتْرَةً فِي الْجَزِيرَةِ تَحْتَ حُكْمِ الْمَلِكِ الْغُرْمَانِيِّ وِلْيَامَ الثَّانِي. وقد وَصَفَ مَدِينَةَ بَالِيرْمُو وَمَسَاجِدَهَا وَقُصُورَهَا، وَأَشَارَ إِلَى مَكَانَةِ الْمُسْلِمِينَ الرَّفِيعَةِ فِي بَلَاطِ الْمَلِكِ. وأَبْدَى إِعْجَابَهُ بِتَحَضُّرِ الْجَزِيرَةِ رَغْمَ تَحَوُّلِ سِيَادَتِهَا السِّيَاسِيَّةِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى عَقْلَانِيَّتِهِ الْمَوْضُوعِيَّةِ.

تَمَيَّزَتْ رِحْلَةُ ابْنِ جُبَيْرٍ بِخَصَائِصَ أُسْلُوبِيَّةٍ وَمَنْهَجِيَّةٍ جَعَلَتْهَا فَرِيدَةً فِي بَابِهَا. اعْتَمَدَ عَلَى أُسْلُوبِ الْيَوْمِيَّاتِ الدَّقِيقِ، حَيْثُ كَانَ يُسَجِّلُ الْأَحْدَاثَ يَوْمًا بِيَوْمٍ مَعَ ذِكْرِ الشُّهُورِ الْهِجْرِيَّةِ وَمَا يُقَابِلُهَا مِنَ الشُّهُورِ الْعَجَمِيَّةِ. جَمَعَ فِيهَا بَيْنَ النَّثْرِ الْفَنِّيِّ الْأَنِيقِ الْمَلِيءِ بِالسَّجْعِ الْعَفْوِيِّ وَبَيْنَ التَّقْرِيرِ الْعِلْمِيِّ الصَّارِمِ. هَذَا التَّمَازُجُ أَكْسَبَ النَّصَّ حَيَوِيَّةً تَجْذِبُ الْقَارِئَ وَتَنْقُلُهُ إِلَى قَلْبِ الْحَدَثِ.

مَا يُمَيِّزُ كِتَابَاتِهِ أَيْضًا هُوَ الِاهْتِمَامُ الْبَالِغُ بِالْجَوَانِبِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالِاقْتِصَادِيَّةِ لِلشُّعُوبِ الَّتِي زَارَهَا. فهو لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى وَصْفِ الْآثَارِ وَالْمَعَالِمِ، بَلْ تَحَدَّثَ عَنِ الْأَسْوَاقِ، وَالْأَسْعَارِ، وَالْعَادَاتِ التَّقْلِيدِيَّةِ، وَأَحْوَالِ الْمَرْأَةِ. كَمَا رَكَّزَ عَلَى والْأَوْقَافِ الَّتِي كَانَتْ تَرْعَى الْفُقَرَاءَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالْمَرْضَى. هَذِهِ التَّفَاصِيلُ الِاجْتِمَاعِيَّةُ مَنَحَتْ كِتَابَهُ عُمْقًا أَنْثْرُوبُولُوجِيًّا يَفُوقُ مُجَرَّدَ كَوْنِهِ تَدْوِينًا لِمَشَاهِدَاتِ سَفَرٍ.

أَثَّرَتْ رِحْلَةُ ابْنِ جُبَيْرٍ تَأْثِيرًا بَالِغًا وَمُمْتَدًّا فِي أَدَبِ الرِّحْلَاتِ الْإِسْلَامِيِّ وَالْعَالَمِيِّ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ. وأَصْبَحَ كِتَابُهُ النَّمُوذَجَ الِاحْتِذَائِيَّ الَّذِي سَارَ عَلَى نَهْجِهِ الرَّحَّالَةُ اللَّاحِقُونَ فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ. نَقَلَ عَنْهُ كِبَارُ الْمُؤَرِّخِينَ وَالْجُغْرَافِيِّينَ مِثْلَ ابْنِ بَطُّوطَةَ، وَالْعَبْدَرِيِّ، وَالْمَقْرِيزِيِّ، وَابْنِ خَلْدُونَ. حَتَّى أَنَّ ابْنَ بَطُّوطَةَ فِي رِحْلَتِهِ الشَّهِيرَةِ اقْتَبَسَ فِقَرَاتٍ كَامِلَةً مِنْ وَصْفِ ابْنِ جُبَيْرٍ لِمَكَّةَ وَدِمَشْقَ.

تَجَلَّى هَذَا التَّأْثِيرُ فِي تَرْسِيخِ جِنْسٍ أَدَبِيٍّ جَدِيدٍ يُعْرَفُ بِـ "الرِّحْلَةِ الْحِجَازِيَّةِ"، وَالَّتِي تَتَّخِذُ مِنَ الْحَجِّ مِحْوَرًا أَسَاسِيًّا. صَارَتْ طَرِيقَتُهُ فِي وَصْفِ الْمَنَاسِكِ

وَجُغْرَافِيَا الْأَمَاكِنِ الْمُقَدَّسَةِ مِعْيَارًا نَقْدِيًّا يُقَاسُ بِهِ نَجَاحُ أَيِّ رَحَّالَةٍ آخَرَ. كَمَا فَتَحَتْ رِحْلَتُهُ الْبَابَ لِلِاهْتِمَامِ بِالْعَلَاقَاتِ بَيْنَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ عَبْرَ نَافِذَةِ الْمُشَاهَدَةِ الْعَيْنِيَّةِ الْمُبَاشِرَةِ.

فِي الْخِتَامِ، يُمْكِنُ الْقَوْلُ إِنَّ رِحْلَةَ ابْنِ جُبَيْرٍ لَمْ تَكُنْ مُجَرَّدَ سِجِلٍّ لِتَنَقُّلَاتٍ جُغْرَافِيَّةٍ، بَلْ وَثِيقَةً حَضَارِيَّةً مُتَكَامِلَةً. كَشَفَتْ عَنْ عَقْلِيَّةِ الْعَالِمِ الْمُسْلِمِ الْمُنْفَتِحِ، وَقَدَّمَتْ صُورَةً حَيَّةً لِلْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ الْهِجْرِيِّ. وَيَبْقَى أَثَرُهَا الْأَدَبِيُّ نَابِضًا بِالْحَيَاةِ، كَأَحَدِ أَعْظَمِ جُسُورِ التَّوَاصُلِ الثَّقَافِيِّ وَالتَّارِيخِيِّ الَّتِي خَلَّفَهَا التُّرَاثُ الْعَرَبِيُّ.

وأختم المقالة بمقارنة سريعة بين أسلوبه وأسلوب ابن بطوطة حيث يَعْكِسُ الْمُقَارَنُ بَيْنَ أُسْلُوبِ ابْنِ جُبَيْرٍ وَابْنِ بَطُّوطَةَ تَطَوُّرَ أَدَبِ الرِّحْلَاتِ النَّثْرِيِّ وَتَبَايُنَ الرُّؤَى الْحَضَارِيَّةِ بَيْنَ الْقَرْنَيْنِ السَّادِسِ وَالثَّامِنِ الْهِجْرِيَّيْنِ.

يَمْتَازُ أُسْلُوبُ ابْنِ جُبَيْرٍ بِالرَّصَانَةِ الْأَدَبِيَّةِ وَالِالْتِزَامِ بِالْبَلَاغَةِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ الْعَالِيَةِ الَّتِي تَعْتَمِدُ عَلَى السَّجْعِ الْعَفْوِيِّ غَيْرِ الْمُتَكَلَّفِ. يَمِيلُ فِي كِتَابَتِهِ إِلَى الدِّقَّةِ الْعِلْمِيَّةِ الصَّارِمَةِ وَتَوْثِيقِ التَّوَارِيخِ بِالْأَيَّامِ وَالشُّهُورِ مِمَّا يَجْعَلُ نَصَّهُ أَقْرَبَ إِلَى التَّقْرِيرِ الْجُغْرَافِيِّ النَّابِضِ بِالْجَمَالِ. كَمَا تَتَّسِمُ نَظْرَتُهُ بِالْمَوْضُوعِيَّةِ وَالتَّحْلِيلِ الِاجْتِمَاعِيِّ الْعَمِيقِ لِلْمُؤَسَّسَاتِ وَالْأَوْقَافِ مَعَ حُضُورٍ قَوِيٍّ لِلْحِسِّ الدِّينِيِّ وَالْوَرَعِ الَّذِي يَصْبُغُ مُشَاهَدَاتِهِ.

فِي الْمُقَابِلِ، يَظْهَرُ أُسْلُوبُ ابْنِ بَطُّوطَةَ أَكْثَرَ بَسَاطَةً وَاعْتِمَادًا عَلَى لُغَةٍ سَرْدِيَّةٍ حَكْوَاتِيَّةٍ تَقْتَرِبُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ مِنَ الْعَامِيَّةِ الْمُثَقَّفَةِ. يَبْتَعِدُ ابْنُ بَطُّوطَةَ عَنِ التَّقْيِيدِ الزَّمَنِيِّ الدَّقِيقِ لِيُرَكِّزَ عَلَى الْإِثَارَةِ وَالْمَغَامَرَةِ وَنَقْلِ الْقِصَصِ الْغَرِيبَةِ وَالْعَجَائِبِ الْإِنْسَانِيَّةِ. تُهَيْمِنُ الشَّخْصَانِيَّةُ عَلَى رِحْلَتِهِ حَيْثُ يُفِيضُ فِي ذِكْرِ عَلَاقَاتِهِ بِالْمُلُوكِ، وَالْهَدَايَا الَّتِي تَلَقَّاهَا، مِمَّا يَجْعَلُ نَصَّهُ مُشَوِّقًا لِلْقَارِئِ الْعَادِيِّ.

مِنْ حَيْثُ الْمَنْهَجُ، كَانَ ابْنُ جُبَيْرٍ مُشَاهِدًا مُدَقِّقًا يَكْتُبُ يَوْمِيَّاتِهِ بِنَفْسِهِ فَوْرَ حُدُوثِهَا مِمَّا مَنَحَهُ مِصْدَاقِيَّةً تَارِيخِيَّةً كَبِيرَةً. أَمَّا ابْنُ بَطُّوطَةَ فَقَدْ كَتَبَ رِحْلَتَهُ بَعْدَ عَوْدَتِهِ بِعُقُودٍ مُمْلِيًا إِيَّاهَا عَلَى الْكَاتِبِ ابْنِ جُزَيٍّ الْكَلْبِيِّ الَّذِي

هَذَّبَ الْأَلْفَاظَ. أَدَّى هَذَا الْإِمْلَاءُ الْمُتَأَخِّرُ إِلَى اعْتِمَادِ ابْنِ بَطُّوطَةَ عَلَى الِاقْتِبَاسِ الْمُبَاشِرِ مِنْ نَصِّ ابْنِ جُبَيْرٍ دُونَ إِشَارَةٍ فِي وَصْفِ بَعْضِ الْمُدُنِ.

تَظْهَرُ الْفُرُوقُ أَيْضًا فِي نِطَاقِ الرُّؤْيَةِ؛ فَابْنُ جُبَيْرٍ رَحَّالَةٌ ذُو هَدَفٍ مُحَدَّدٍ يَدُورُ حَوْلَ الْمَرْكَزِ الْإِسْلَامِيِّ. بَيْنَمَا ابْنُ بَطُّوطَةَ رَحَّالَةٌ عَالَمِيٌّ تَخَطَّى حُدُودَ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ إِلَى الصِّينِ وَالْهِنْدِ وَأَفْرِيقْيَا عَابِرًا الثَّقَافَاتِ. رحم الله ابْنُ جُبَيْرٍ وجزاه كلّ الخير.... تمت بحمد الله.